البنية البشرية لجيوش صلاح الدين

سعيد عبد الفتاح عاشور*

* حصل على دكتوراه في تاريخ العصور الوسطى مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة عام ١٩٥٤.
يعمل أستاذاً بقسم التاريخ بجامعة القاهرة.

الملخص

لاحظنا في عديد من الندوات والمؤتمرات العلمية التي عقدت في العامين الأخيرين ـ داخل العالم العربي وخارجه ـ للاحتفال بذكرى مرور ثمانمائة عام على انتصار صلاح الدين في حطين، واسترداده بيت المقدس من الصليبيين، وقوع بعض الباحثين في أخطاء تاريخية، ربما بسبب الحماسة التي غلبت عليهم، أو بسبب الألم مما تعانيه أمتنا في حاضرها من أخطار.

ولعل أبرز هذه الأخطاء الخلط بين العروبة والإسلام، وإدماجهما في بعضهما إدماجاً تاما مطلقا، ثم نسبة الانتصارات التي حققها المسلمون في معركة الجهاد ضد الصليبيين إلى العرب وحدهم، ووصف هذه المعركة بأنها معركة عربية، وبأن أبطالها هم أبطال العروبة. . . وفي هذا كله تحريف جسيم للحقيقة التاريخية، وتحوير خاطىء لواقع التاريخ، وتحميل للتاريخ أكثر مما يحتمل.

وفي هذا البحث حاولنا وضع الأمور في نصابها، وإعطاء صورة واضحة أقرب إلى الواقع التاريخي لحركة الجهاد في عصر الحروب الصليبية، وإلقاء أضواء لإظهار حقيقة البنية البشرية للجيوش التي اعتمد عليها صلاح الدين في حركة الجهاد، وإظهار الدوافع الحقيقية التي حرّكت تلك الجيوش حتى أنجزت ما أنجزته من انتصارات.

مقدمة

من الأمراض الخطيرة التي يعاني منها علم التاريخ محاولة بعض الكتّاب والساسة من أصحاب الإيديولوجيات والمذاهب الفكرية والسياسية، تسخير التاريخ في الترويج لآرائهم ونظرياتهم، وإيهام الناس أن تلك الآراء والنظريات لها جذور تاريخية، مما يبرر الأخذ بها والاعتقاد في صحتها.

ولكن التاريخ علم له أهدافه وأركانه ومنهجه. ومن أول هذه الأهداف الوصول إلى الحقيقة التاريخية كاملة غير مبتورة أو مشوهة، وعرضها عرضا أمينا لا انحراف فيه ولا تحريف. ولكي يصل المؤرخ المؤمن برسالته إلى هدفه، لابد من أن يلتزم بأركان المنهج التاريخي السليم. وأهم هذه الأركان أن يحكم بالعدل، وأن يتجرد عند إصدار أحكامه من الميول والنزوات والعواطف، عقائدية كانت أو عنصرية أو إقليمية. وبعبارة أخرى على المؤرخ المنصف ألا يتعصب لعقيدة يؤمن بها أو لحزب ينتمي إليه، أو لجماعة يعتنق آراءها ويروّج لأفكارها، أو لحاكم أو نظام يعمل تحت مظلته ويربط مصيره به، أو لعنصر أو جنس ينحدر منه، وينتمي إليه، أو لوطن أو بلد يرتبط به وينتسب إليه. وإنما على المؤرخ أن يعرض الحقيقة التاريخية عرضاً أمينا، متجردا من أية عاطفة سوى الحرص على إرضاء ضميره، حتى لو تعارضت أحكامه مع ميوله ومشاعره وأحاسيسه وآرائه العقائدية والفكرية. وما أشبه المؤرخ بالقاضي الذي يجهد نفسه بالبحث عن الحقيقة بين أكداس الأوراق والمستندات المتوافرة أمامه، ليصدر في النهاية حكما عادلا مجردا من الميول والأهواء.

ولاشك في أننا نعايش اليوم فترة لها أهميتها في نظر المؤرخ اليقظ، الذي يحرص على أن يجعل من التاريخ مدرسة كبرى يستفاد فيها من دروس الماضي لمواجهة أخطار الحاضر. ذلك أننا نحتفل في العقدين الأخيرين من القرن العشرين بذكرى مرور تسعة قرون على تعرض المسلمين في الشرق الأدنى لأكبر حركة عدوانية عرفها العالم الإسلامي في العصور الوسطى، وذلك في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد، وبمرور ثمانية قرون على تحول ميزان القوى في الحروب الصليبية في الشرق الأدنى في صالح المسلمين، وذلك على أيام صلاح الدين في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، ثم بمرور سبعة قرون على طرد آخر البقايا الصليبية من الشام وتطهير الأرض تماما من الغزاة الغربيين، وذلك على أيدي سلاطين المماليك في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد.

وتتخذ هذه الاحتفالات اليوم شكل سلسلة من الندوات والمؤتمرات تلقى فيها الخطب، وتناقش فيها البحوث والآراء، تعبيرا عن مشاعر وأحاسيس تربط بين الماضي والحاضر، وتنفيساً عما يشعر به كل مسلم من آلام وآمال نحو بقعة مقدسة ، لها مكانتها الخاصة في نفوس المسلمين جميعا، بوصفها أولى القبلتين وثالث الحرمين.

ولكن ما يلاحظه المؤرخ المنصف ، هو أن موجة الحماسة هذه ربما جرفت الحقيقة التاريخية في طريقها، فانحرف بعضهم في تفسير التاريخ وحمّلوه أكثر مما يحتمل. وسواء جاءت هذه الانحرافات عن قصد أم غير قصد، فإن من شأنها أن تشوّه صورة القضية، وربما انتقصت من حقوق أصحابها،

لأنها توجه تيار الجهاد والمقاومة وجهة خاطئة، لا تساعد على تحقيق الأهداف المنشودة تحقيقا تاما مثمرا سريعا.

الموضوع

أساء البعض تصوير حركة المقاومة الإسلامية ضد الصليبيين في أواخر القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر للميلاد، فوصفوا جيوش صلاح الدين بأنها جيوش عربية، وصوروا القوات التي خرجت من مصر للإسهام في تلك الحركة في صورة توحي بأنها تألفت من أبناء مصر الحقيقيين، وليست من عناصر وافدة، اتخذت من أرض مصر منزلا ومقاما.

ولا يستطيع المؤرخ البصير المتفهم لروح العصر أن يقف صامتا أمام هذا التحريف، وإنما لابد من تقويم الحقيقة التاريخية في ضوء الاعتبارات الآتية:

أولا: إن الحركة الصليبية بأبعادها التاريخية المعروفة، تمت في حقبة من حقب التاريخ اصطلح المؤرخون على تسميتها باسم عصور الإيمان، بمعنى أن الدين كان يشكل القوة الكبرى التي هيمنت في تلك الحقبة على قلوب الناس وعقولهم، ووجهت حياتهم وكيّفت مجتمعاتهم. فَتَحْتَ مظلة الدين اجتمع الفرنجي والألماني والإيطالي والسكسوني والنورماني والإنجليزي... وغيرهم، وقد خاطوا جميعا الصلبان على أرديتهم، وغادروا بلادهم مستهدفين ضرب المسلمين واسترداد الأرض المقدسة منهم. وكانوا إذا أعدوا المعركة ضد المسلمين في بلاد الشام، اصطفوا حول قائدهم «وبين يديه الإنجيل محمولا مستورا بثوب أطلس». (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢ : ٢٩٤).

ومن ناحية أخرى، فإنه تحت مظلة الدين اجتمع التركي والكردي والتركماني والعربي.. وغيرهم من أجناس المسلمين، ترفرف فوق رؤوسهم جميعا راية واحدة تحمل عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وقد خرجوا جميعا في حركة جهاد ديني واسعة مرحبين بالاستشهاد في سبيل الله. وكلما حقّقوا نصرا اعتبروه نصرا «لكافة المسلمين»، وليس لفئة أو طائفة بعينها (أبو شامة، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، جـ ١، ق ١ : ٨٧، ٢٧٢).

ومعنى هذا أن أية محاولة للإقلال من أهمية العامل الديني في عصر الحروب الصليبية بوجه خاص، وفي العصور الوسطى بوجه عام، وإحلال ما عرف في العصور الحديثة باسم العامل القومي، محل العامل الديني، يعتبر مخالفا لروح التاريخ وللواقع التاريخي، بل يعتبر تزييفاً للحقيقة التاريخية.

ثانيا: إذا كانت الحروب الصليبية في الشرق قد بدأت في أواخر القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر للميلاد، فإن علينا أن نعترف بأن تلك الحقبة من حقب التاريخ الإسلامي، شهدت انحلال

قوة العنصر العربي، وانهيار سيادته سياسيا، وانكماش نفوذه الحربي في تلك المنطقة بالذات. إن هيمنة العنصر العربي سياسيا وحربيا ظلت قوية واضحة منذ فجر الإسلام حتى نهاية العصر الأموي. ولكن حدث بقيام الدولة العباسية أن أخذت كفّة الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام ـ بدءا بالفرس ومن بعدهم الأتراك ـ ترجح تدريجيا على حساب العنصر العربي، وبخاصة في الجناح الشرقي للدولة الإسلامية، حتى فقد العنصر العربي في الشرق الأوسط سيادته في القرنين الرابع والخامس للهجرة، العاشر والحادي عشر للميلاد.

وحدث في ذلك الوقت أن دخلت عناصر جديدة من شعوب آسيا الوسطى في الإسلام، وأظهر هؤلاء المسلمون الجدد حماسة شديدة لعقيدتهم، وخاصة بعد أن فرضوا وصايتهم على الخلافة العباسية المتداعية في بغداد. وكان أن أمد هؤلاء المسلمون الجدد ـ من الأتراك السلاجقة والتركمان والأكراد ـ دولة الإسلام بدماء فتّية دفاقة، وطاقة جديدة متعطشة للدفاع عن العقيدة وحمايتها (ابن الأثير، ١٨٦٢، ٨: ٥٣٢ ـ حوادث سنة ٣٤٩ هـ). وقد ساعد على انتشار الإسلام بين هذه العناصر «ما امتاز به الإسلام على سائر الأديان العالمية. . . . . فالإسلام دين عالمي بمعنى الكلمة، أي أنه ليس مقصورا على جنس أو مدنية. . . . .» (بارتولد، ١٩٥٨: ٧٠). وكان أن أخذ هؤلاء المسلمون الجدد ـ من الأتراك السلاجقة والتركمان والأكراد ـ يتوسعون، وينشرون نفوذهم السياسي غربا في أقليم الجزيرة وشرقي آسيا الصغرى وبلاد الشام، حيث حلّوا محل البيوت العربية المتناثرة في تلك الجهات (الفارقي، ١٩٥٩: ٥١ ومابعدها).

ويعنينا في هذا البحث أن هؤلاء المسلمين الجدد الذين دخلوا في الإسلام قبيل وصول الصليبيين إلى الشرق بزمن قصير، وفرضوا سيادتهم على أقاليم متعددة في الشرق الأوسط، كانوا هم الذين تحملوا العبء الأكبر في التصدي للخطر الصليبي، بوصفهم مسئولين عن حماية البلاد والعباد، فضلا عن حماستهم المتأججة للديانة الإسلامية. وباستعراض تاريخ الحركة الصليبية في الشرق، حتى أواخر القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر للميلاد ـ نجد أن أبطال حركة المقاومة والجهاد كانوا جميعا من الأتراك وأقربائهم التركمان، فضلا عن الأكراد، وذلك بدءا بقلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم في القرن الحادي عشر للميلاد حتى سلاطين المماليك في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، ومرورا بغازي بن دانشمند، وكربوغا، ومودود، وبرسق بن برسق، وآقسنقر البرسقي، وجكرمش، وسقمان بن أرتق، وإيلغازي الأرتقي، وعماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين يوسف بن أيوب وأهل بيته. . . . . ومعظم هؤلاء كانوا من اتباع سلاطين سلاجقة فارس.

وفي وسط هذا الخضم من أمراء حركة الجهاد وقادة المقاومة الإسلامية ـ من أتراك وتركمان وأكراد ـ قد نصادف في المصادر المعاصرة ـ بطريقة عارضة سريعة ـ إشارة أو اسما لبعض من شاركوهم وساروا في ركابهم من أمراء العرب المحليين، مثل أسامة بن المبارك بن شبل الكلابي، وسلطان بن منقذ، ولكننا لانجد ذكرا لأعمالهم أو لجهودهم أو حتى لآرائهم، مما يجعلنا نعتقد

أنهم لم يكن لهم نصيب من الزعامة أو القيادة، ولم تكن لهم سلطة اتخاذ القرار. لقد كانوا أتباعا. (ابن الأثير، ١٨٦٢، جـ ١ : ٥٥٤، ٧٤٧، حوادث سنة ٥١٣ هـ، حوادث سنة ٥٠٥ هـ).

هذا مع ملاحظة أننا عندما نؤكد انكماش دور العنصر العربي في حركة الجهاد ضد الصليبيين في الشرق، فإن هذا لاينبغي أن يفسر بأنه انتقاص من مكانة العرب، أو اتهام لهم بالتقاعس عن النهوض بواجب الجهاد في مرحلة من أخطر مراحل تاريخ الأمة الإسلامية. إن العنصر العربي له أمجاده الخالدة ورصيده الضخم في تاريخ أمة الإسلام منذ مولدها. وحسب العرب أنهم حملوا رسالة الإسلام إلى المشرق والمغرب، وأنهم تحمّلوا ما تحمّلوا في حركة الفتوح الإسلامية حتى امتدت دولة الإسلام من بحر الظلمات غربا إلى قلب القارّة الآسيوية شرقا. وهكذا استنفد العرب طاقتهم في صدر الإسلام ـ وعلى مدى بضعة قرون ـ حتى نضب معينهم في مرحلة لاحقة بعد أن كانوا جند الإسلام الذائدين عن حياضه، المبشرين بعقيدته.

وإذا كان غير العرب من المسلمين قد حلّوا محل العرب في النهوض بمهمة الدفاع عن كيان الأمة الإسلامية، في مرحلة لاحقة من مراحل التاريخ، فإن علينا أن نتذكر أن الإسلام جعل من المؤمنين إخوة، وجعل الجهاد فرضا على كل مسلم قادر ـ وليس على العرب وحدهم ـ وساوى بين المسلمين جميعا في الحقوق والواجبات، وأكد على لسان رسوله الكريم (ص) أن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. وما دام العنصر العربي قد استنفد طاقته بعد أن أدّى واجبه، فلا ينتقص من شأنه في تلك المرحلة اللاحقة من مراحل التاريخ أن ينهض إخوة للعرب بالأمانة والوفاء بالعهد تحت مظلّة الإسلام.

ثالثا: واكب مرحلة الحروب الصليبية ازدهار النظام الإقطاعي في الشرق الإسلامي والغرب الأوربي المسيحي جميعا. ومهما تتباين بعض أوجه هذا النظام في العالمين الإسلامي والمسيحي، فإن هناك تشابها كبيرا في ركن أساسي من أركانه، يكمن فيما يمكن أن نسميه الوظيفة الإقطاعية. فالنظام الإقطاعي قام على أساس فكرة الحقوق والواجبات المتبادلة بين الأمير أو السيد الإقطاعي من ناحية، وأفصاله المقطعين من ناحية أخرى. وبعبارة أخرى فإن الأرض أو المدن، أو القلاع والحصون التي يتم إقطاعها للأفصال والأتباع، تكون مقابل خدمات حربية يلتزم هؤلاء الأفصال بتقديمها لسادتهم الإقطاعيين، متى طلب منهم ذلك.

وفي دراستنا للبنية البشرية لجيوش صلاح الدين، علينا أن نعي حقيقة هامة، هي أن جيش صلاح الدين قام في جوهره وبنائه ونظامه على أسس إقطاعية راسخة، مستقاة من نظام الإقطاع الحربي، الذي طبقه الأتراك السلاجقة منذ أيام نظام الملك، وزير السلطان ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥ هـ = ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م). يذكر عماد الدين الأصفهاني أن الوزير نظام الملك «عمّر الولايات... وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد، وصرفها إلى الأجناد، ولم يكن لأحد من قبل إقطاع، فرأى نظام الملك أن الأموال لاتحصل من البلاد لاختلالها. ففرقها

على الأجناد إقطاعا، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا. . . وقرر معهم الحضور إلى الخدمة وموالاة الخدمات للحضرة، والوصول بالعساكر الجمة. . .» (الأصفهاني، ١٩٧٨ : ٦٠).

ومن المعروف أن البيت الأيوبي نشأ في كنف السلاجقة، وأن نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيركوه كانا من أمراء عماد الدين زنكي ـ أحد رجال السلطان محمود السلجوقي ـ، وقد أقطعهما زنكي سنة ٥٣٣هـ (١١٣٨م) إقطاعات سنية في شمال العراق (أبو شامة، ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، جـ ١، ق ٢ : ٣٢٩ ـ ٣٣٠).

يذكر المقريزي أن زنكي أحسن إلى أيوب وأخيه شيركوه «وأقطعهما إقطاعا حسنا» (المقريزي، ١٩٥٦، جـ ١، ق ١ : ٤١). وعندما خلف نور الدين محمود أباه عماد الدين زنكي في حكم الموصل وحلب، دخل الأخوان ـ أيوب وشيركوه ـ في خدمته، فزاد نور الدين محمود من إقطاعاتهما، بعد أن صارا من جملة أتباعه، واعتمد عليهما في كثير من المهام الصعبة.

وهكذا كان نظام الإقطاع السلجوقي هو النظام الذي شبّ صلاح الدين بين أحضانه، وتشرب روحه، ولم يعرف أسلوبا غيره في بناء الجيوش. وعندما أرسل نور الدين محمود حملاته الحربية الثلاث إلى مصر بقيادة شيركوه، وبصحبته أبن أخيه صلاح الدين (٥٥٩ ـ ٥٦٤ هـ = ١١٦٤ ـ ١١٦٨م)، كانت الجيوش التي أرسلها نور الدين جيوشا إقطاعية بحتة في نظامها وبنائها، يتألف كل منها من عدد من الأمراء المقطعين، بصحبة كل أمير أجناده وفرسانه، وعلى رأس الجيش بأكمله شيركوه، وهو فصل إقطاعي لسيده نور الدين. وكانت هذه الجيوش تتألف بأكملها من عناصر الأتراك والأكراد والتركمان، وهي العناصر التي قام على أكتافها النظام الإقطاعي السلجوقي.

وما كادت الأمور تستقر لشيركوه في مصر في أيام وزارته للخليفة العاضد الفاطمي، حتى «غلب على الدولة وأقطع البلاد لعساكره» على حدّ قول ابن خلدون (ابن خلدون، ١٢٨٤هـ، جـ ٤ : ٧٩). ولم يكن هناك نظام بديل ـ غير النظام الإقطاعي ـ أمام صلاح الدين عندما آل إليه زمام الأمور في مصر عقب وفاة عمه شيركوه، ووفاة الخليفة العاضد الفاطمي سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م)، ثم وفاة سيّده نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)، فاستأنف صلاح الدين توزيع الإقطاعات على الأمراء والأجناد لدعم قوته والتمكين لنفسه وتقوية جيشه. يذكر المقريزي أنه عند زوال الدولة الفاطمية، فإن «السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين (أي الفاطميين) والعربان والأرمن وغيرهم، واستجد عسكرا من الأكراد والأتراك خاصة» (المقريزي، ١٢٧٠هـ، جـ ١ : ٩٤). وفي موضع آخر يقول نفس المؤرخ «وأما منذ كانت أيام السلطان صلاح يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فإن أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده» (المقريزي، ١٢٧٠هـ، جـ ١ : ٩٧).

وفي تلك الأجواء، شرع صلاح الدين في إعادة بناء الجبهة الإسلامية المتحدة، التي تعرضت للتصدع عقب وفاة سيّده نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م)، وذلك تمهيدا لخوض مرحلة الجهاد الكبرى ضد الصليبيين. وكان أن اهتم صلاح الدين ـ لدعم قوته ـ بتوزيع الإقطاعات على الأمراء والأجناد في إقليم الجزيرة وبلاد الشام وشرقي بلاد الروم (آسيا الصغرى)، وبذلك يضمن وجود قوى موالية له في هذا الجناح الشرقي للدولة. هذا فضلا عن الإقطاعات التي وزعها صلاح الدين في مصر على الأسدية والناصرية، نسبة إلى أسد الدين شيركوه والناصر صلاح الدين نفسه.

وقد بدأ صلاح الدين بأقرب الأمراء إليه ـ وخاصة من أهل بيته ـ ليشكل منهم درعا تُحمى دولته من أخطار خصومه ومنافسيه، وعلى رأس هؤلاء الخصوم بعض أمراء البيت الزنكي في إقليم الجزيرة. من ذلك أنه أقطع دمشق لابنه الأفضل، وأقطع إربل لأخيه مظفر الدين، ثم أضاف إليها شهرزور وأعمالها. وأقطع ابن أخيه ـ تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ـ حرّان والرّها (٥٨٢ هـ ـ ١١٨٦م) بعد أن أخذهما من مظفر الدين. وأضاف إلى اقطاع تقي الدين سميساط وميافارقين وحماة والمعرة وسلمية ومنبج، وقلعة نجم، وجبلة واللاذقية وبلاطنس، وأمره بأن يقطع البلاد للجند ويعود معهم إلى ساحة المعركة ضد الصليبيين لتقوى بهم حركة الجهاد (أبو شامة: ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، جـ ٢: ٥٥).

ثم إن صلاح الدين لم يقتصر في توزيع الإقطاعات على أقربائه وآل بيته، وإنما اتسعت الدائرة لتشمل عددا كبيرا من الأمراء الأتراك السلاجقة والأكراد والتركمان، ممن ربطتهم بصلاح الدين روابط سابقة، أو ممن دخلوا في خدمته، ليعتمد عليهم، ويكونوا عدة جيشه. ومن هؤلاء نذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى، وهو من الأكراد الهكارية، وكان إقطاعه نابلس وأعمالها. كذلك أقطع صلاح الدين أبا الهيجاء السمين ـ مقدم الأتراك الأسدية نصيبين بعد فتحها سنة ٥٧٨هـ (١١٨٢م)، والأمير بدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق تل باشر (المقريزي، ١٩٥٦، جـ ١ : ١٩٦)، (ابن تغرى، ١٩٣٥، جـ ٦: ١٦ ـ ١٧، ١١٧، ١٢٣ ـ ١٢٤).

وهناك فريق من أمراء نور الدين محمود أيّدوا صلاح الدين، ودخلوا في خدمته بعد وفاة سيّدهم الأول، فكافأهم وهؤلاء كافأهم صلاح الدين بالإنعام عليهم بإقطاعات جديدة، أو بتثبيتهم على ماكان بأيديهم من إقطاعات سابقة، ومن هؤلاء علم الدين سليمان بن جندر بحلب، وقد أقطعه صلاح الدين حصن دربساك، ثم زاده عليه اعزاز، كما أقطع آمد ـ من ديار بكر ـ للأمير نور الدين محمد بن كرد أرسلان الأرتقي، صاحب حصن كيفا. ثم أقطع الرها للأمير مظفر الدين كوكبورى بن قطب الدين بن ينال بن حسان المنبجي، وهو من الأمراء النورية (طرخان، ١٩٦٨: ٤٠).

هؤلاء الأمراء وأمثالهم، كانوا عدة صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين، وكانوا أداة الجهاد الفعّالة في عصر صلاح الدين، وتألفت منهم ومن أجنادهم الكتائب التي خاضت معركة حطين، وما قبل حطين وبعدها من معارك التحم فيها صلاح الدين بالصليبيين. يذكر ابن شداد أن صلاح الدين سار سنة ٥٧٩هـ (١١٨٣م) حتى أتى الجالوت «وهي قرية عامرة، وعندها عين جارية، فخيّم بها.

وكان قد قدم عز الدين جرديك وجماعة من المماليك النورية، وجاولي مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الفرنج. فاتفق أنهم صادفوا عسكر الكرك والشوبك (من الصليبيين) . . . فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم زهاء مائة نفر، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد يدعى بهرام الشاروش» (ابن شداد، ١٩٦٢ : ١٠٠).

كذلك يذكر ابن شداد أنه عندما أخذت وفود الصليبيين تنزح إلى عكا لحصارها سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)، اتفق الرأى على أن يسير جزء من العسكر الإسلامي لقطع الطريق عليهم، «وكان أول من سار صاحب منبج ناصر الدين، ثم عزالدين بن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب بعلبك، ثم صاحب شيزر سابق الدين، ثم الياروقية[1] من جملة عسكر حلب ثم عسكر حماه . . .» (ابن شداد، ١٩٦٢ : ١٩٦).

وإذا كان هؤلاء الأمراء ـ كما يتضح من أسمائهم ـ ينتمون إلى أجناس غير عربية، فإن علينا أن ندرك أن كل أمير إقطاعي منهم اختار أفصاله وأتباعه من شاكلته. توضح هذه الحقيقة بعض الإشارات التي نعثر عليها في المصادر المعاصرة، كأن يقول العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٧هـ مانصّه: «ذكر جماعة وصلوا من عسكر الإسلام . . . وقدم في ذلك التاريخ الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، وقد استصحب معه مماليكه الترك» (الأصفهاني: ٤٧٢).

كذلك، علينا أن نلاحظ أن النظام الإقطاعي ـ في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي جميعا ـ حدد الإطار العام لفئة المحاربين، بحيث غدت المهام القتالية موكولة إلى أمراء الإقطاع وأتباعهم، وليس إلى أيّة فئة أو جماعة أخرى. وفي ظل هذا النظام كانت مهمة التدريب على القتال والحرب من المهام الصعبة، الباهظة التكاليف، بحيث لايستطيع أن يباشرها الفرد العادي. لذلك كان عامة الناس بعيدين عن المشاركة في الحروب النظامية، لأن وجودهم في ساحة المعركة، من شأنه أن يلقي عبء حمايتهم على كواهل المحاربين المدربين والفرسان المحنكين، الذين عرفوا أساليب الطعن والكر والفر. وأقصى مايمكن أن تشارك به العامة في مجال الحرب في تلك العصور، هو أن تسير أعداد منهم خلف الجيوش والفرق النظامية، للتهليل والتكبير والدعاء بالنصر، أو لحمل الزاد والمتاع والمعدات. ونستطيع أن نقرر في موضوعية تامة أن صلاح الدين اعتمد في حروبه على الأمراء الإقطاعيين وأجنادهم، وأنه لم يكن لعامة أهل مصر والشام وإقليم الجزيرة أي دور أساس في المعارك الكبرى التي خاضها ذلك البطل في حركة الجهاد.

عن الاستعداد لمعركة عكا سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م)، يذكر الأصفهاني ـ وهو معاصر لصلاح الدين ـ ما نصّه: «ووصل الخبر بأن عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي (صاحب سنجار والجزيرة) وصل جامعا من الدواني والأقاصي. . ينتظر قدوم السلطان (صلاح الدين) والاتفاق معه على قهر الشرك ونصر الإيمان . . . وجاء عماد الدين في خواصه وأمرائه وصحبه. . .» (الأصفهاني: ٢١٩). وعن نفس المعركة وترتيب الجيش فيها، يقول المؤرخ ابن واصل: «وكان السلطان (صلاح الدين) في

القلب، وفي الميمنة ولده الأفضل نور الدين، ثم ولده الملك الظافر خضر، ثم عسكر الموصل ومقدمهم ظهير الدين بن البلتكري، ثم عسكر ديار بكر ومقدمهم قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن وآمد، ثم حسام الدين ابن أخت السلطان ـ صاحب نابلس ـ، ثم صارم الدين قايماز النجمي، وجموع عظيمة متصلون بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بعسكره، وهو مطّل على البحر.

«وأما الميسرة، فكان مما يلي القلب الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب ـ ملك الأكراد ومقدمهم ـ والأمير مجلى وجماعة من المهرانية والهكارية [٢]، ومجاهد الدين يرنقش مقدم عسكر سنجار، وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن زين الدين بعسكره. . . وأواخر الميسرة كبار الأسدية، مثل سيف الدين يازكوج ورسلان بغا. .» . (ابن واصل ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ٢: ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

كذلك يروى العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٦ هـ مانصّه «وقدم في هذا اليوم مظفر الدين بن علي كوجك ـ وهو صاحب حران ـ جريدة، وقد أستأنف للجهاد عزيمة جديدة، ثم عاد إلى عسكره ليقدم به». (الأصفهاني: ٣٦٩). ويواصل العماد كلامه عن الاستعداد للحرب في نفس السنة، فيقول: «ذكر وصول الأكابر في هذه السنة. . . قدم عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي بما استنهضه من العساكر. . . ثم وصل من بعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن غازي بن مودود صاحب الجزيرة بعساكره الكثيفة الكثيرة. . . ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرم شاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود. . . ثم وصل زين الدين مسعود يوسف بن زين الدين على كوجك صاحب اربل. . .» (الأصفهاني: ٣٨٠ ـ ٣٨٣).

وعندما نقول إن جيوش صلاح الدين تألفت من أجناس وعناصر بشرية متعددة، ترجع أصولهم وجذورهم إلى منطقة سهوب وسط آسيا وغربها، معظمهم من الأتراك والأكراد والتركمان، فإن علينا أن نلاحظ أن نسبة هذه العناصر بعضها إلى بعض لم تكن ثابتة من سنة إلى أخرى، وفي كافة المعارك التي خاضها ذلك البطل. ذلك أن الوضع جرى على أنه عندما تعقد الهدنات مع العدو، أو عندما يقبل فصل الشتاء بأنوائه وبرده القارس، وتخفّ تبعا لذلك وطأة القتال، عندئذ يعود الأمراء وجندهم إلى بلادهم وديارهم للراحة، على أن يرجعوا للقتال مع مقدم فصل الربيع. يذكر ابن واصل في حوادث سنة ٥٨٦هـ مانصّه: «ولما دخل الشتاء، وطالت مدة البيكار [٣] أبدت العساكر السآمة والضجر من الإقامة. وجد الملك عماد الدين زنكي بن مودود بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي ـ صاحب الجزيرة ـ يوم عيد الفطر على السلطان، وودعه من غير سابقة استئذان. . . ولما أقبل الربيع توافت العساكر وفاء بموعدها. . .» (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢: ٣٤٠ ـ ٣٤٩).

وقد ترتب على هذه العملية حدوث تغيير في نسبة العناصر والأجناس التي تألفت منها جيوش صلاح الدين من سنة لأخرى، فقد تكون نسبة الأتراك أو الأكراد الذين عادوا في الربيع أقل أو أكثر من نسبة أولئك الذين انصرفوا في الشتاء، وذلك بسبب تخلف بعض الأمراء بأجنادهم عن العودة لأسباب داخلية في بلادهم، أو لظروف خاصة أخرّتهم عن الحضور، أو بسبب استحضارهم أعدادا أكبر من الأجناد والأتباع. ويترتب على هذا وذاك حدوث فوارق عددية بين العناصر التي تتألف منها

جيوش صلاح الدين من سنة لأخرى. يقول القاضي بهاء الدين بن شدّاد في عرضه لحوادث سنة ٥٨٧هـ:

«وعندما جاء أوان عود العساكر إلى الجهاد، كان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر من أمراء الملك الظاهر (غازي ـ ابن صلاح الدين ـ صاحب حلب). . . وقدم بعده مجد الدين بن عز الدين فرخشاه صاحب بعلبك. وتتابعت العساكر. . .» (ابن شداد، ١٩٦٢: ٢٤٧).

ومهما يكن من أمر، فإن هؤلاء الأمراء من أتباع صلاح الدين كانوا هم الذين يقومون بالهجمات الرئيسة على مواقع الصليبيين، فضلا عن أنهم كانوا على رأس جنودهم يشكلون الفيالق الرئيسة التي تألف منها جيش صلاح الدين في المعارك الكبرى التي خاضها. يذكر ابن شداد في حوادث سنة ٥٨٧هـ: «وقام أسد الدين ـ وهو شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير صاحب حمص ـ بغارة على فرنج طرابلس، وهجم على جشارهم[٤] فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس، ومائة من البقر، ولم يُفقد من أصحابه أحد. . .» (ابن شدّاد، ١٩٦٢: ٢٤٤).

كذلك كان هؤلاء الأمراء يقدمون المشورة لصلاح الدين إذا استلزم الأمر ذلك. يذكر العماد الأصفهاني أنه عند وصول عماد الدين زنكي بن مودود، على رأس جنده سنة ٥٨٤ هـ في جمع كبير من أمرائه وجنده، فإنه «تصاحب هو والسلطان (صلاح الدين) في الركوب والجلوس. . . وتكررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده». (الأصفهاني: ٢٢٥). هذا، في حين يذكر المؤرخ ابن واصل أنه بعد أن استولى صلاح الدين على بيت المقدس، «وردت على السلطان كتب الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب ـ وهو نائب السلطان بصيدا وبيروت ـ يحرضه على حصار صور» (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢: ٢٤٢).

هناك حقيقة كبرى ينبغي ألا تغيب عن فكرنا، وألا نقلل من شأنها، هي أن صلاح الدين يوسف بن أيوب وأهل بيته، كانوا أكرادا وليسوا عربا. وإذا اعتز أبناء هذا البيت بشيء فإنهم كانوا يعتزون بأنهم مسلمون. وكثيرا ماكانوا في حياة صلاح الدين ـ وبعد وفاة صلاح الدين ـ يتخاطبون مع بعضهم بعضا «بالعجمية» أي باللسان الأعجمي غير العربي. (أبو شامة، ذيل الروضتين: ١٠٢)، (المقريزي: ١٩٥٦، جـ ١: ١٨٦)، (عاشور، ١٩٨٦، جـ ٢: ٧٥٥). ولذا كان من الطبيعي أن يعتمد بنو أيوب في المقام الأول على بنى جلدتهم من الأعاجم، وخاصة أنهم أكثر صلابة وخشونة، وأقل انغماسا في حياة الدعة والترف.

وفي ضوء هذه الحقائق، تتضح لنا معالم البنية الحقيقية للجيوش التي اعتمد عليها صلاح الدين في حركة الجهاد، والتي كانت الأداة التي خاض بها معاركه الكبرى ضد الصليبيين. ولم نصادف في المصادر المعاصرة كافة اسما لقائد عربي، أو إشارة إلى كتيبة عربية شكلت ركنا نظاميا في جيوش صلاح الدين، كل مافي الأمر هو أننا نصادف أحيانا لفظ «العرب» أو «العربان» بصورة عابرة سريعة، دون تحديد لأسماء معيّنة أو إشارة إلى دور قتالي بارز قاموا به في حركة الجهاد. ومن الإشارات القليلة العابرة في المصادر المعاصرة إلى العرب والعربان، قول ابن القلانسي في حوادث سنة ٥٥٢ هـ أن نور الدين

محمود توجه في تلك السنة «إلى ناحية العساكر المجتمعة من التركمان والعرب للجهاد في الكفرة الأضداد» (ابن القلانسي، ١٩٠٨ : ٣٤٠). وكذلك قول ابن واصل في حوادث سنة ٥٨٦ هـ «ودخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة، والسلطان (صلاح الدين) نازل بالخروبة على حصار الفرنج المحاصرين لعكا. . . وكانت العساكر الغربية قد انصرفت إلى بلادها لهجوم الشتاء وتوالي الأنواء والأنداء. ثم دخل الربيع وجاءت العساكر والنجد يتلو بعضها بعضا، فوصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين بن المقدم صاحب بعرين وفامية وكفر طاب. ودخل معهم من أعيان الأجناد وحشود التركمان والعرب. . .» (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢ : ٣١١ ـ ٣١٢). ومن الواضح أن التركمان والعرب المشار إليهم في النص الأخير لم يسهموا في صورة قوات نظامية أو جيوش ثابتة، وإنما كانوا مجرد «حشود». وهذه الحشود أو الجموع كثيرا ماكانت تضم «الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينيين. . .» وذلك لتشجيع المقاتلين وبث الثقة في نفوسهم (ابن القلانسي، ١٩٠٨ : ٣٤٠).

ومهما يكن من أمر، فإن ورود لفظ «العرب» على هذه الصورة يتطلب منا وقفة لمعرفة حقيقة دور العنصر العربي في حركة الجهاد ضد الصليبيين.

سبق أن أوضحنا كيف شاءت الظروف أن تنشط الحروب الصليبية في منطقة الشرق الأدنى في وقت تقلص النفوذ السياسي للعنصر العربي في تلك المنطقة، وذلك بعد أن غدت الهيمنة السياسية، والقوة العسكرية للعناصر العربية الوافدة من سهوب آسيا الوسطى، والتي دخلت في الإسلام لتمد الجناح الشرقي للدولة الإسلامية بطاقة جديدة، ودماء فتية تفيض حماسة للإسلام والرغبة في الدفاع عنه.

وفي الوقت الذي ضعفت الخلافة العباسية تحت سيطرة أمراء بني بويه، ثم سلاطين الأتراك السلاجقة، غدت المنطقة التي نعتبرها المسرح الرئيس للحروب الصليبية ـ وهي المنطقة الممتدة من إقليم الجزيرة وشرق آسيا الصغرى إلى بلاد الشام ودلتا نهر النيل ـ قسمة بين قوى متباينة الأصول، مختلفة الميول والعقائد والأهواء، متنافسة على النفوذ والسلطان، بحيث لايهدأ الصراع بينها وبين بعض حينا، إلا ليشتد أحيانا. ومن بين هذه القوى، يذكر التاريخ في القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر للميلاد ـ أسماء بعض الدويلات أو الإمارات التي ارتبطت ببيوت تنتمي إلى أصول عربية. والملاحظ عل هذه الدويلات جميعا أنها كانت أضعف من أن تقاوم التيار الجديد، لذا كانت قصيرة العمر، محدودة الأثر السياسي، لاتشكل في حقيقة الأمر مركز ثقل يستطيع الصمود أمام أخطار العصر. ولم تلبث أن عصفت بها الأحداث واحدة بعد أخرى، فامّحت من صفحة التاريخ دون أن تترك خلفها أثرا يذكر.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه الإمارات العربية لم تكن موضع احترام من جانب الأتراك السلاجقة الذين هيمنوا على المنطقة، فأنزل بهم السلطان السلجوقي طغرلبك ضربة قوية في إقليم الجزيرة سنة ٤٤٨ هـ. ولما عرض بعض الأمراء التوسط بين العرب والسلطان طغرلبك، رد إبراهيم ينال ـ أخو

السلطان ـ قائلا: «من هؤلاء العرب حتى تجعلهم نظراء السلطان وتصلح بينهم؟ !!» (ابن الأثير، ١٨٦٢، جـ ٩: ٦٣٠، سنة ٤٤٨ هـ).

ومن أهم هذه الدويلات أو الإمارات العربية في القرنين الخامس والسادس للهجرة ـ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ـ إمارة العقيليين في الموصل، وإمارة بني مرداس في حلب، وإمارة بني عمّار في طرابلس، وإمارة بني منقذ في شيزر.

أما عن إمارة العقيليين في الموصل، فقد استطاع أميرها شرف الدولة مسلم العقيلي مدّ نفوذه إلى شمال الشام والاستيلاء على حلب سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠م). ولكن سليمان بن قتلمش ـ سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى تصدى للأمير العربي شرف الدولة مسلم العقيلي، الذي خرَّ قتيلا في المعركة التي دارت بين الطرفين، مما جاء دليلا على عدم قدرة التيار القديم على الصمود في مواجهة التيار الجديد (ابن القلانسي، ١٩٠٨: ١١٨، سنة ٤٧٨هـ).

وكانت قد قامت في حلب ـ قبل سقوطها في أيدي العقيليين ـ إمارة عربية أخرى، ارتبط اسمها ببني مرداس (٤١٥ ـ ٤٧٢هـ = ١٠٢٤ ـ ١٠٧٩م)، ولكنها لم تعش طويلا لتترك أثرا في تاريخ المنطقة، وهكذا شاءت الظروف أن تصل الحملة الصليبية الأولى إلى منطقة الشرق الأدنى في أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد، فلا تصادف في بلاد الشام إلا وحدتين أو إمارتين عربيتين هزيلتين، هما إمارة بني عمّار في طرابلس، وإمارة بني منقذ في شيزر، بالإضافة إلى بعض الأمراء العرب المحليين الذي خضعوا في صورة أو أخرى للقوى الكبرى في المنطقة. ولم يكن باستطاعة إحدى هاتين الإمارتين العربيتين الصمود أمام النفوذ السلجوقي الذي أخذ يتغلغل في بلاد الشام، مما جعل كلا منهما تتقوقع داخل أسوار المدينة أو الحصن الذي يشكل قلب الإمارة، في محاولة شبه يائسة للاحتفاظ بكيانها وسط الأخطار المتعددة التي أحاطت بها. وكان بنو عمّار قد استقلوا بطرابلس عن سادتهم، الفاطميين، ولذا لم يستطيعوا الاعتماد على مساندة الدولة الفاطمية لهم عندما دهمهم الخطر الصليبي. ولما كان بنو عمّار شيعة، فإنهم لم يتمكنوا أيضا من الحصول على مساندة القوى السنيّة القريبة، سواء الخلافة العباسية أو الأتراك السلاجقة. وكان أن لجأ بنو عمّار ـ أمام الزحف الصليبي ـ إلى استرضاء الصليبيين دفعا لخطرهم، بل ربما قدّموا العون لهم شراء لمسالمتهم. ولكن هذه السياسة لم تضمن لهم الاحتفاظ بإمارتهم طويلا، فلم تلبث أن سقطت في أيدي الصليبيين سنة ١١٠٩م (٥٠٣ هـ)، وقامت في طرابلس إمارة صليبية كبيرة (ابن الأثير، ١٨٦٢، حوادث سنة ٥٠٣ هـ)، (ابن تغرى، ١٩٣٥، جـ ٥: ١٧٩).

ولم يتبق في بلاد الشام بعد ذلك ـ عند منتصف القرن الثاني عشر للميلاد ـ من الإمارات العربية سوى إمارة بني منقذ في شيزر. وقد نجح بنو منقذ في شراء مسالمة الأعداء الذين أحاطوا بإمارتهم، فصالحوا سليمان بن قتلمش ـ سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ـ عندما انطلق في بلاد الشام للاستيلاء على ممتلكات العقيليين ـ ومن جملتها معرة النعمان وكفر طاب، كما هدد شيزر نفسها ـ معقل

بني منقذ، لولا أن الأمير نصر بن منقذ صالحه على مال يحمله إليه. (ابن العديم، ١٩٥٤، جـ٢ : ٩٥). وإذا كانت إمارة بني منقذ العربية قد قدر لها البقاء والاستمرار في شيزر إلى مابعد منتصف القرن الثاني عشر للميلاد ـ أي حتى سنة ١١٥٧م ـ ، فإن ذلك لايرجع إلى قوتها بقدر مايرجع إلى مقدرة أمرائها على الانحناء أمام التيارات المضادة، ومسالمة جيرانهم من المسلمين والصليبيين جميعا، بحيث لم يزجّوا بأنفسهم في الصراع الدائر بين الطرفين، ووضعوا لأنفسهم سياسة محورها مسالمة الجميع من أجل الحفاظ على إمارتهم وسط تلك التيارات المتضاربة. (ابن منقذ، ١٩٣٠ : ٣٦ وما بعدها).

من ذلك أن بنى منقذ لم يشاركوا بقية القوى الإسلامية في مواجهة الخطر الصليبي قرب حلب سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧م) ، مما مكّن الصليبيين من الاستيلاء على انطاكية بعد ذلك. وما كاد الصليبيون يشرعون في الزحف على بلاد الشام جنوبا ـ عقب استيلائهم على انطاكية ـ حتى سارع أبو العساكر سلطان ـ أمير شيزر ـ بانفاذ رسولين إلى الأمير ريموند الصنجيلي (يناير ١٠٩٩)، مبديا استعداده لتقديم معونة للصليبيين، وتزويدهم بالأدّلاء والمرشدين ليتمكنوا من عبور نهر العاصي عبر المخاضة . . . كل ذلك مقابل عدم الاعتداء على إمارته في شيزر (عاشور، ١٩٨٦، جـ١ : ١٧٩).

ولم يكن منتظرا من هذه الإمارة العربية الصغيرة أن يكون لها شأن في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، وخاصة بعد أن نجح نور الدين محمود في إقامة صرح جبهة إسلامية قوية، امتدت من الموصل إلى حلب، ثم إلى دمشق في قلب بلاد الشام. ومع ذلك فقد ظل بنو منقذ يحتفظون بتوازنهم بين القوى الإسلامية والصليبية في بلاد الشام، حتى حل بالبلاد زلزال عنيف سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧م)، دمر حماة وشيزر وكفر طاب والمعرّة وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وغيرها (ابن القلانسي، ١٩٠٨ : ٣٤٤).

وشاءت الأقدار أن يحدث الزلزال في وقت كان جميع أفراد أسرة بني منقذ مجتمعين في أحد قصورهم حيث أقيمت وليمة عائلية كبرى، فخر السقف عليهم، وماتوا جميعا تحته. وعندما حاول الصليبيون انتهاز الفرصة للاستيلاء على شيزر، سابقهم نور الدين محمود، ووضع يده على الحصن، وأعاد تعمير القلعة. وعلى هذا النحو سقط آخر البيوت العربية الحاكمة في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، ولم يتبق للعرب أثر لقوة سياسية أو مسحة من الحكم في تلك البلاد، وذلك قبيل بزوغ نجم صلاح الدين يوسف بن أيوب بسنوات معدودة.

والواقع أن سقوط تلك البيوت العربية ـ واحدا بعد آخر ـ ، كان لايعدو أمرا شكليا لايغير كثيرا من صورة الوضع العربي في منطقة الشرق الأدنى في ذلك العصر. ذلك أن تلك الوحدات كانت قبل سقوطها مجرد رموز، لاتمتلك من أسباب النفوذ والقوة مايجعل لها أثرا فعالا في حركة الجهاد. ونظرا لما كانت تعانيه من ضعف، فإن بعضها لجأ إلى مصانعة الصليبيين، بل إلى محالفتهم ضد القوى الإسلامية. من ذلك أنه عندما تعرضت حلب سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) لهجوم صليبي كبير، قام الأمير العربي دبيس بن صدقة بن مزيد[٥] بمؤازرة الصليبيين في هجومهم على حلب الإسلامية، بل يقال إنه

هو الذي خطط لذلك الهجوم، وأغرى الصليبيين على مساعدته في مهاجمة حلب. ولكن جيش حلب السلجوقي خرج إليه وكسره، حتى قام آقسنقر البرسقي صاحب الموصل بإنقاذ حلب (ابن العديم : ١٩٥٤ ، جـ ٢ : ٢٢٣ وما بعدها).

وهناك العديد من الشواهد التاريخية في المصادر المعاصرة، توضح أن انحلال العنصر العربي في تلك المرحلة التي تمثل الشطر الأخير من العصور الوسطى، كان سببه الانغماس في حياة الترف. فما من إمارة عربية في إقليم الجزيرة وفي بلاد الشام خلت أخبارها عندئذ من إشارات إلى مجالس الشراب والرقص والغناء، وشغف الأمراء باتخاذ المماليك والغلمان والجواري، ونصب حلقات الصيد، فضلا عن الإسراف في العطاء ومنح الهبات (ابن منقذ، ١٩٣٠ : ٢٠١، ٢٠٦ وما بعدها)، (الأصفهاني، ١٩٥٥، جـ١ : ٥٦١ ـ ٥٦٢)، (الشيخ، ١٩٨٠ : ٤١٧ وما بعدها). وكان ذلك في الوقت الذي ظهر على مسرح الشرق الأدنى عنصر الأتراك بثقله السياسي والحربي، محتفظين بصلابتهم الاجتماعية، وأصولهم الرعوية، وقدرتهم على تحمل المشاق ومهارتهم في الكر والفر، فضلا عن حماستهم للإسلام وحرصهم على الذود عنه.

ولم يجد الأتراك السلاجقة، ومن ارتبط بهم من أكراد وتركمان، في البلاد العربية التي فتحوها وبسطوا سيطرتهم عليها ما يتأثرون به في مجال النظم، وبخاصة النظم الحربية. وبالرجوع إلى المصادر التي عاصرت زمن صلاح الدين، نجدها مليئة بالمصطلحات العسكرية وغير العسكرية التي لاتمت إلى العربية بصلة، وإنما أدخلها الحكام الجدد. ومعظم هذه الألفاظ ترجع جذورها إلى أصول فارسية وتركية وكردية مثل البيكار، والطلب[٦]، واليزك[٧]، والجشار. . . وغيرها. وقد بلغ من كثرة الألفاظ والمصطلحات غير العربية التي انسابت في البلاد العربية عندئذ، أنها غدت شائعة الاستعمال في الحياة اليومية وفي كتابات العلماء المعاصرين. ولعل هذا مما دفع بعض الباحثين المحدثين إلى وضع قواميس جمعوا فيها ماتيسر لهم جمعه من ألفاظ تطرقت إلى اللغة العربية، وشاع استخدامها في ذلك الدور من أدوار التاريخ (Dozy,1967) .

وفي ضوء ماسبق، نستطيع أن نقرر في موضوعية وحياد علمي، أن دور العنصر العربي في معركة الجهاد في عصر الحروب الصليبية كان محدودا ثانويا، بمعنى أن العرب لم يكونوا لبنة أساسية في جيوش صلاح الدين ومن سبقه ولحق به من زعماء حركة الجهاد ضد الصليبيين. لقد صار العرب عندئذ أقرب إلى ظاهرة ثانوية هامشية، كأن يستعان بهم أو ببعض عشائرهم في إظهار الكثرة العددية لجيوش المسلمين، ليفتّ ذلك في عضد أعدائهم، أو في الإغارة على مراعي الصليبيين وحقولهم وضياعهم، أو في قطع الطريق على مسافريهم وحجّاجهم. ولكن العرب لم يشكلوا كتيبة رئيسة في أية معركة نظامية فاصلة خاضها صلاح الدين، لأنهم لم يكونوا جزءا يعتدّ به في النظام الإقطاعي الذي شكل الإطار العام للجيوش النظامية. ولا يتعارض هذا مع القول بأن صلاح الدين أنعم على بعض مشايخ العربان بإقطاعات ثانوية، لأن الإنعام بالإقطاع لم يكن في هذه الحالة مقابل خدمة عسكرية محددة، بقدر ماكان ثمنا لشراء ولاء العربان، والحيلولة بينهم وبين خيانته، أو العبث بحالة الأمن في البلاد (المقريزي، مخطوطة : ٨٧ ـ ٩٠). ومن الثابت أن صلاح الدين أقطع أحيانا بعض الأعداء إقطاعات ليأمن

شرهم، حتى إنه بعد انتصاره في حطين سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م)، أقطع «فرسان الداوية والاسبتارية بعض البلاد والقرى، وذلك حسما للنزاع وحقنا للدماء مؤقتا» (طرخان، ١٩٦٨ : ٤٢).

ولا أدل على أن العنصر العربي كان قد فقد مكانته السياسية والحربية في الشرق الأوسط على عصر الحروب الصليبية، مما حرمه من النهوض بدور فعال في معركة الجهاد ضد الخطر الصليبي من أن صلاح الدين ماكاد يستولي على بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م)، حتى وفد عليه رسل حكام المسلمين من البلاد المجاورة يحملون إليه التهنئة. وبتصفح قائمة أسماء هؤلاء الحكام، لانجد بينهم عربيا واحدا . يذكر المؤرخ ابن واصل أنه عقب الاستيلاء على بيت المقدس «ورد على السلطان رسل (سلاجقة) الروم وخراسان والعراق، وكلهم يهنىء السلطان بما خصّه الله تعالى به من فتح بيت المقدس. ومن جملة الرسل: رسول صاحب العجم، وهو أتابك مظفر الدين قرا أرسلان بن عثمان بن ايلدكز . . . » (ابن واصل ، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢ : ٢٤٨).

ومن ناحية أخرى، فإن صلاح الدين كان في أوقات الشدة يكتب إلى السلاطين والحكام في بلاد المسلمين يستنفرهم للجهاد. ولا نجد بين هؤلاء على مسرح الشرق الأوسط اسما عربيا واحدا، لأنه لم توجد في تلك المنطقة عندئذ قوة عربية يمكن الاستنجاد بها وطلب معونتها. يذكر ابن واصل أنه عندما ساء موقف صلاح الدين أمام عكا سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٩م)، فإنه أرسل إلى جميع الأقطار في طلب المعونة، فكتب إلى أخيه طغتكين بن أيوب صاحب اليمن، كما «كاتب مظفر الدين أرسلان صاحب العجم. . . وورد على السلطان من عز الدين مسعود صاحب الموصل أحمال النفط الأبيض. . . » (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢ : ٣٠٦ ـ ٣٠٧).

وعلى حين تذكر المصادر المعاصرة أسماء العديد من أمراء الأتراك والأكراد والتركمان الذين شاركوا في المعارك الحربية الكبرى التي خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين، وذلك بوصفهم يشكلون البنية الأساسية لجيوش المسلمين، لا نجد ذكرا لاسم قائد عربي شارك في معركة من تلك المعارك. وكل مايصادفه الباحث هو حضور «جموع العرب» و «حشود العربان». من ذلك قول العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٤ هـ « وأتى العرب وواتى الأرب، واجتمعت الجيوش، وجاشت الجموع». ولكن من هم هؤلاء العرب؟ ومن أين أتوا؟ وتحت زعامة من؟ وما دورهم الحقيقي في الحرب والقتال؟ . . . كل هذه أمور لاتتعرض لها المصادر المعاصرة إطلاقا، مما يعطي انطباعا بأنهم أعداد من عشائر البدو، الذين ربما رأى بعضهم في المعركة الدائرة بين المسلمين والصليبيين فرصة للفوز بقسط من الغنائم. كذلك يذكر العماد الأصفهاني أنه عندما انتشر الصليبيون سنة ٥٨٥ هـ في المراعي المحيطة بعكا، رأى صلاح الدين أن لايمكنهم من رعي مواشيهم «فانتدب جماعة من العربان، وضراغم فارسة من الفرسان، فاغاروا وهم غارون. » (الأصفهاني : ٣٠٦).

وكان من الطبيعي أن يسقط بعض هؤلاء العربان قتلى في تلك الأحداث. من ذلك أن ابن شداد أشار إلى مقتل أربعة من العرب أمام عكا سنة ٥٨٥ هـ ، ولكنه لم يعتبرهم «شهداء» ، وإنما « قتلى»، لأن الفرنج أسروهم، ثم «قتلوهم خشية الاستنقاذ». وقد وصف ابن شدّاد أحد هؤلاء القتلى العرب

بأنه «كان شابا تاما، حسن الشباب» (ابن شدّاد، ١٩٦٢ : ١٥٨). وشتّان بين هذا الوصف وبين مايصف به ابن شداد ـ وغيره من المؤرخين المعاصرين ـ أحد الأسدية أو الناصرية ـ من غير العرب ـ إذا سقط في ساحة القتال. يقول ابن شداد نفسه عن بهاء الدين قراقوش «ولم يفقد من المسلمين إلا خادم للسلطان يسمى قراقوش، كان شجاعا عظيما، له وقعات عظيمة كثيرة، استشهد في ذلك اليوم» (ابن شداد، ١٩٦٢ : ٢٤٥). وعن استشهاد آخر يقول العماد الأصفهاني «استشهد في ذلك اليوم الهمام المقدام، الأسد الضرغام، الطاغي الضارب... اياز الطويل». (الأصفهاني ٥٣٩، حوادث سنة ٥٨٧ هـ). وعن استشهاد ثالث يقول ابن شداد «ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك واحد للسلطان يعرف بأيبك الأخرش، وكان شجاعا باسلا، مجربا في الحرب فارسا...» (ابن شداد، ١٩٦٢ : ١٥٤).

وأخيرا، لنا أن نتساءل: هل كان لأبناء مصر والشام الأصليين ـ لا نزلاء البلاد الوافدين ـ دور في معركة الجهاد ضد الصليبيين، وهل كوّنوا لبنة في بناء جيوش صلاح الدين؟

الواقع أن وضع فئة المحاربين والمقاتلين في حركة الجهاد الكبرى ضد الصليبيين تحدد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ في ظل نظام إقطاعي حربي، بحيث اقتصر أفراد هذه الفئة على الأفصال الذين تدربوا على الفروسية، وأجادوا أساليب القتال والكر والفر. ومن الثابت أن حكام مصر والشام في تلك الحقبة من التاريخ، لم يحاولوا إدخال أهل مصر والشام في دائرة هذا النظام، وبالتالي لم يحاولوا تجنيد فرق نظامية منهم، بحيث تكون لها من المكانة والأهمية ما لفرق العناصر التي اعتمدوا عليها في حروبهم اعتمادا كليا.

وقد أخطأ بعض الباحثين المحدثين عندما تعجلوا في فهم بعض النصوص الواردة في المصادر المعاصرة، والتي تشير إلى «العساكر المصرية» و «عسكر مصر»، وفسّروا ذلك بأن هؤلاء العساكر كانوا من أبناء مصر الحقيقيين الذين أسهموا في بناء جيوش صلاح الدين. ودعم هؤلاء وجهة نظرهم بما صادفوه في المصادر من وصف أولئك العساكر بالسمرة، وكأن السمرة من سمات أهل مصر وحدهم. (ماجد، ١٩٨٤).

والحقيقة هي أن نور الدين محمود عندما أرسل أسد الدين شيركوه على رأس ثلاث حملات متعاقبة لفتح مصر (٥٥٩ ـ ٥٦٤ هـ = ١١٦٤ ـ ١١٦٨م)، فإن هذه الحملات تألفت من جيوش إقطاعية، ضمت أعدادا من الأتراك والأكراد والتركمان، تحت قيادة مجموعة من الأمراء، لكل أمير منهم اتباعه ومماليكه. وقد سبق أن أوضحنا كيف أن شيركوه ـ ومن بعده ابن أخيه صلاح الدين ـ لم يضنّا على جيوشهما في مصر بإقطاعات جديدة، كما أنهما عملا على زيادة أعداد تلك الجيوش بإضافة محاربين جدد من نفس شاكلتها ـ لا من أهل البلاد الأصليين ـ إليها.

ولكن ما صادفه صلاح الدين من أخطار داخلية وخارجية في مصر أيام وزارته للعاضد الفاطمي، ثم بعد وفاة العاضد الفاطمي، جعلته يحرص دائما على إبقاء قوة كبيرة من جيوشه في مصر، بحيث إنه لم يخرج إلى الشام عقب وفاة سيّده نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م)، إلا في قلة من

الجند، تاركا معظم جيوشه في مصر لإحكام القبضة عليها، والدفاع عنها ضد أي خطر خارجي أو داخلي محتمل. يذكر المؤرخ ابن واصل أن صلاح الدين عندما خرج من مصر قاصدا دمشق سنة ٥٧٠ هـ التقاه صديق بن جاولي صاحب بصرى، «فلما رأى قلة من معه، قال للقاضي الفاضل: ما أرى معكم عسكرا. وهذا (يعني دمشق) بلد عظيم لايؤخذ بهذا العسكر» (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ٢: ١٩). ويفهم من هذا بوضوح أن صلاح الدين حرص على أن يترك الجزء الأكبر من جيوشه ـ وبخاصة الأسدية والناصرية ـ في مصر، بعد أن وسع عليهم في الإقطاعات والمنح.

ثم حدث مع مرور الوقت أن هدأت الأوضاع في مصر، بعد أن انكسرت شوكة أتباع الدولة الفاطمية، وشغل الصليبيون مؤقتا بنشاط صلاح الدين في الشام. وعندما أدرك صلاح الدين أن الميدان الرئيس لحركة الجهاد هو الشام وليس مصر، اشتدت حاجته إلى قواته المتمركزة في مصر ليضرب بها الصليبيين بالشام. وهكذا دأب بين حين وآخر على أن يرسل في طلب «عساكر مصر»، بمعنى العساكر الأسدية والناصرية المتمركزة في مصر ـ وجلّهم من الأكراد والأتراك ـ وليس مثلما اعتقد البعض خطأً من أبناء مصر الأصليين.

يذكر القاضي بهاء الدين بن شداد في حديثه عن نشاط صلاح الدين في شمال الشام وإقليم الجزيرة سنة ٥٧٨ هـ مانصّه: «والسلطان قد أنفذ في طلب العساكر من مصر يترقب وصولها، حتى وصل عسكر مصر، فسار ـ رحمه الله ـ حتى أتى قرون حماه..» (ابن شداد، ١٩٦٢: ٨١). وباستعراض قائمة أسماء أمراء هؤلاء العساكر وقادتهم، والأجناد الوافدين من مصر بناء على طلب صلاح الدين، يتضح أنهم جميعا من الأكراد والأتراك، وأنهم ينتمون إلى طائفتي الأسدية والناصرية. يقول العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٧ هـ «وفي يوم الأربعاء ثاني جمادي الآخرة، وصل جماعة من عسكر مصر والقاهرة، بالعدة الوافرة والقوة الظاهرة، مثل علم الدين كرجي، وسيف الدين سنقر الدوادار، وأمثالهما من المماليك الناصرية، والمساعير الأسدية». (الأصفهاني: ٤٩٥)، (ابن شداد، ١٩٦٢: ٢٦٣). وكان صلاح الدين يفرح بوصول هؤلاء «العساكر المصرية» سالمين، ويخرج بنفسه ليستقبلهم عند حضورهم (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ٢: ١٨٦).

وفي معركة عكا سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) ترددت أسماء بعض الأمراء والمماليك الأسدية والناصرية، ممن أبلو بلاءً حسنا في أثناء حصار الصليبيين لتلك المدينة. ومن هؤلاء بهاء الدين قراقوش بن عبد الملك الأسدي الصلاحي[٨]، وسيف الدين يازكج، ورسلان بغا، «وجماعة الأسدية الذين يضرب بهم المثل»، (ابن شداد، ١٩٦٢: ١١٣، ١١٧). ويكرر العماد الأصفهاني نفس المعنى عندما يقول في حوادث سنة ٥٨٧ هـ مانصّه: «وفي يوم الأحد ثالث ذي الحجة، وصل حسام الدين أبو الهيجاء[٩] من مصر بعسكر مجر، وتبعته بعد ذلك العساكر المصرية». (الأصفهاني: ٤٩٥).

وهكذا، فإن مصطلح «العساكر المصرية» أو «عسكر مصر» لايعني مطلقا في عرف المعاصرين أن هؤلاء العساكر من أصل مصري ـ مثلما توهم البعض ـ وإنما قصد بهذا المصطلح نزلاء مصر من الأمراء والأجناد التابعين لصلاح الدين. وقد استخدم المعاصرون هذا المصطلح بنفس المعنى في

حالات كثيرة مشابهة، فاطلقوا على الجيوش الفاطمية التي كانت تخرج من مصر إلى الشام اسم «العساكر المصرية» و «عساكر مصر» (ابن تغرى بردى، ١٩٣٥، جـ ٥: ٤٧) . بل لقد أطلق المؤرخ ابن تغرى بردى على جهاز الدولة الفاطمية في مصر اسم «المصريين» و «أهل مصر» (ابن تغرى، ١٩٣٥، جـ ٥: ١٧٩). كذلك أطلقوا على الخلفاء الفاطميين اسم «الخلفاء المصريين» (ابن أبي أصيبعة: ٥٧٩). وما يقال عن «العساكر المصرية»، يقال أيضا عما تردد في المصادر المعاصرة من ذكر للعساكر «الحلبية»، فليس المقصود بهم أبناء حلب، وإنما الجند النازلين بحلب، المقيمين بها، الوافدين منها (ابن واصل: ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢: ١٨٦).

أما اتخاذ صفة السمرة دليلا على أن هؤلاء العساكر من أصل مصري، فأمر يدعو إلى العجب، لأن صفة السمرة ليست من خصائص أهل مصر دون غيرهم من شعوب الأرض. وهناك من الأكراد والأتراك من لفحت وجوههم الشمس على سفوح الجبال والتلال، فغدوا أكثر سمرة من أهل مصر، فما بالنا بذلك الفريق الذي وفد على مصر، وعاش على أرضها أعواما، حتى استدعى إلى بلاد الشام. وفي المصادر المعاصرة وصف لبعض أجناد شمال الشام بالسمرة. يذكر العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٧ هـ أن «أول من وصل من العساكر الإسلامية علم الدين سليمان بن جندر، وكان بحلب المقدم المؤتمر، ومعه حصنا عزاز وبغراس. فقدم في شهر ربيع الأول في عسكره وأبيضه وأسمره. . .» (الأصفهاني: ٤٧٢).

ثم إن السمرة ظاهرة نسبية، ذكر صاحب لسان العرب أنها تتدرج بين السواد والبياض، ومعنى هذا أنها قد تكون أقرب إلى السواد، وقد تكون أقرب إلى البياض (ابن منظور: لسان العرب:مادة سمر). ولدينا في المصادر ما يثبت أن أمراء صلاح الدين في مصر أحضروا في صحبتهم إلى الشام جماعة من الجند السوداني، الذين شاع استخدامهم في أيام الدولة الفاطمية، مما يدل على أن هذا العنصر لم يمح أثره تماما نتيجة للموقف المتشدد الذي وقفه منهم صلاح الدين في أثناء الأحداث التي صحبت سقوط الخلافة الفاطمية في مصر. وقد يكون هؤلاء ممن أسرهم شمس الدولة توران شاه في حملته على النوبة سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٢م)، عندما أرسله أخوه صلاح الدين لفتح تلك البلاد. (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ١: ٢٢٨ ـ ٢٢٩). يقول العماد الكاتب الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٥ هـ «ووصل الملك العادل سيف الدين من مصر منتصف شوال. . . وأحضر معه من سودان مصر كل ذمر كأنه العبسي عابس، وكل مغامر للموت مغامس. . . وكل أسود سالخ، وكل رأس في الشر راسخ. . .» (الأصفهاني: ٣٣٥). ومن الثابت أن هؤلاء الجند السودان الذين استحضروا من مصر كانوا محدودي العدد، ولم يشكلوا لبنة في القوات المحاربة لصلاح الدين، وإلا سمعنا عن دور لهم في المعارك التي دارت مع الصليبيين، وترددت في المصادر أسماء بعض أبطالهم وشجعانهم، أو قتلاهم وشهدائهم.

وليس معنى ما سبق أن مصر والمصريين لم يكن لهم دور في حركة الجهاد التي باشرها صلاح الدين ضد الصليبيين. لقد كان لهم دور كبير بارز يتمثل في أن مصر كانت نقطة الارتكاز التي اعتمد عليها صلاح الدين وخلفاؤه في النهوض بعبء تلك الحركة، وفي كونها المخزن الكبير الذي اختزن فيه

صلاح الدين قواته، ومنها كانت تلك القوات تنطلق إلى بلاد الشام. وكان صلاح الدين ينظر دائما بعين إلى الشام بوصفها الساحة الرئيسة لمعركة الجهاد، وبالعين الأخرى إلى مصر بوصفها ركيزته في الجهاد. هذا بالإضافة إلى دور مصر في الحروب البحرية ضد الصليبيين، سواء في البحر المتوسط أو بحر الروم أو في البحر الأحمر أو في بحر القلزم. وكلما ظهرت حاجة صلاح الدين إلى الأسطول، «استدعى الأسطول المصري» (ابن واصل ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢: ٢٤٣، ٣٠٥). ولا يخفى علينا أن أصول الأكراد والأتراك ترجع إلى بلاد بعيدة عن البحر، ولا خبرة لهم بركوبه أو حروبه، فكانت مراكبهم الخيول. أما أهل مصر والشام فقد عرفوا ركوب البحار منذ قرون بعيدة، ولهم خبرتهم العميقة في الحروب البحرية، فكانت خيولهم المراكب. يضاف إلى هذا كله أن مصر بمواردها المالية الضخمة هي التي مكّنت صلاح الدين من مواصلة حروبه، وهي حروب طويلة شاقة باهظة النفقات. وكانت هذه النفقات أضخم من أن تتحملها بلاد الشام التي مزقتها أحداث الزمان، في حين كان الجناح الشرقي لدولة صلاح الدين أفقر من أن يمده بالمال اللازم لمواصلة الحرب.

وصفوة القول أننا نخرج من هذه الدراسة بحقيقتين تاريخيتين، لا مجال لطمسهما أو التلاعب بهما إرضاء لنزوات عقائدية أو لتيارات فكرية مستحدثة.

أما الحقيقة الأولى، فهي أن العنصر العربي لم يكن له نصيب بارز ملحوظ في بنية جيوش صلاح الدين، وبالتالي فإن هذا العنصر لم يسهم إسهاما واضحا في حركة الجهاد ضد الصليبيين. وتتضح هذه الحقيقة في كتابات المؤرخين المعاصرين، ليس فقط من المسلمين، بل أيضا من المسيحيين الغربيين. فالمؤرخ الصليبي المعاصر وليم الصوري لايعبر عن جيوش المسلمين إلا بلفظ Turks، أي الأتراك، فهم الذين هاجموا، والأتراك هم الذين استولوا. . . أما لفظ Arabs أي العرب، فإن وليم الصوري لم يستخدمه إلا في حالات قليلة نادرة معدودة، تعبيرا عن البدو الرحل الذين احترفوا الرعي، ومارسوا قطع الطرق على القوافل، والإغارة على الضياع. ولا شك في أن وليم الصوري ـ كبير المؤرخين الصليبيين المعاصرين ـ أحس بأن العنصر التركي يمثل عصب جيوش المسلمين والعمود الفقري في بناء قواتهم (Willim of Tyre, Vol. 2: 414 - 415, 340 - 445).

أما الحقيقة الثانية، فهي أن الحروب التي قام بها صلاح الدين ضد الصليبيين كانت جزءا من حركة جهاد ديني ضخمة، استهدفت حماية الإسلام ومقدساته وأرضه وأهله، وانطلقت من منطلق ديني بحت. ومن الخطأ ربط هذه الحركة بالعروبة، أو بما يسمى في العصور الحديثة القومية العربية، لأن في هذا تزييفا للحقيقة التاريخية، وتحميلا للتاريخ أكثر مما يحتمل. فالحركة الصليبية منذ أن دعا لها البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ م جاءت موجهة ضد الإسلام وأهله لا ضد العروبة والمنتمين إليها. وما كادت أقدام الصليبيين تطأ منطقة الشرق الأدنى في آسيا الصغرى، حتى كانت أول قوة اصطدموا بها هي قوة الأتراك من سلاجقة الروم، ثم بعد ذلك التركمان، وهؤلاء جميعا كانوا مسلمين ولم يكونوا عربا (عاشور، ١٩٨٦، جـ ١: ١٢٧ وما بعدها).

ومن ناحية أخرى، فقد انطلقت حركة الجهاد ضد الصليبيين من منطلق إسلامي بحت، ونهض

بها زعماء لم تجر في عروقهم دماء عربية، كما سبق أن أوضحنا. وقد أعلنها صلاح الدين في وضوح، عندما خرج من مصر ليعيد بناء الجبهة الإسلامية، ويمهد لحركة الجهاد، فقال «إنّا لانؤثر للإسلام وأهله إلا ماجمّع شملهم، وألفّ كلمتهم» (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢ : ١٨). ولم يقل «إنا لانؤثر للعروبة وأهلها إلا ما جمع شملها وألفّ كلمتها». وقال صلاح الدين في رسالة أرسلها إلى الشام عندئذ «نحن نغار لله ونغير ونقصد للمسلمين ما نجمع به صلاح الرأي وصواب التدبير» (أبو شامة ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، جـ ١ : ٥٩٥، حوادث سنة ٥٦٩ هـ).

ثم إن المؤرخين المعاصرين عرفوا المجاهدين بأنهم «العساكر الإسلامية» (الأصفهاني: ٣٣٧ ـ ٤٧٢)، (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦، جـ ٢ : ٢١٢)، ولم يعرفوهم بأنهم «العساكر العربية». وفسّر أولئك المؤرخون تعاطف أمراء الجزيرة وشمال الشام مع صلاح الدين في ضوء اتفاقهم جميعا «على قهر الشرك ونصر الإيمان» (الأصفهاني: ٢١٩، سنة ٥٨٤ هـ). وكان إذا مرض أحدهم وأوشك على الموت في فراشه «أسف على عمره وحزن كيف لم يقتل شهيدا» (الأصفهاني: ٣٠٥، سنة ٥٨٥ هـ). وعندما دأبوا على استنفار المجاهدين للجهاد، اتخذوا من الإسلام ركيزة لاستثارة الهمم، فكانوا ينادون «هذا أوان رفض التواني، ونهوض المسلمين من الأقاصي والأداني... والظهور لمظاهرة المسلمين بالعزم الأظهر. فلا يجنح إلى عذر، فللأعذار أوقات، ولا يلتفت إلى غير هذا المهم الذي ليس للمسلمين سواه التفات.» (الأصفهاني: ٥٠٠).

وعند بدء المعركة كان الجاووش[١٠] يصيح في الجند: «ياللإسلام وعساكر الموحدين» (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ٢ : ٢٩٥). أما صلاح الدين نفسه، فقد دأب على الطواف بين صفوف الجند مناديا «ياللإسلام» (ابن شداد، ١٩٦٢ : ١٧٢). وما كاد صلاح الدين يتأهب لخوض معركة حطين، حتى «اجتمعت عنده العساكر الإسلامية، وقد غصّ بها الفضاء» (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢ : ١٨٧). ويصف المؤرخ المقريزي موقعة حطين هذه بأنها «نصر الله فيها دينه» (المقريزي، ١٩٥٦، جـ ١ : ٩٣).

ونخرج من هذا كله بحكم تارخي قاطع، هو أن اجتماع كلمة الجهاد في عصر صلاح الدين تمّ تحت راية الإسلام ـ ولا راية عداها ـ فلا هدف للمجاهدين إلا «اجتماع كلمة الإسلام» و «أهل الإسلام» (ابن واصل: ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢ : ١٨٨، ٢١٨). وهنا لا يجوز الخلط بين العروبة والإسلام. فعلى الرغم من قوة الروابط بينهما، حتى إن أحدهما يبدو أحيانا صنوا للآخر، فإننا في دراسة منهجية ينبغي أن نلتزم بالحدود العلمية. فالعروبة تعبّر عن جنس من أجناس النوع البشري، له خصائصه التاريخية والحضارية، وخاصة فيما يتعلق باللسان. أما الإسلام فعقيدة وديانة وأسلوب معين في الأحاسيس والفكر والسلوك. وهو لايرتبط بجنس واحد أو بفريق محدد من البشر، لأن نبي الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعث رحمة للعالمين وليس لفريق من البشر. وبعبارة أخرى فإن العربي لايشترط فيه أن يكون مسلما، كما أن المسلم لايشترط فيه أن يكون عربيا. يذكر العالم ابن منظور «إن العرب جيل من الناس معروف ـ خلاف العجم ـ قيل إنهم نسبوا إلى يعرب بن قحطان. وهم العرب العاربة ـ أي الخلّص ـ ونشأ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام معهم، فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب

المستعربة، أي الدخلاء الذين ليسوا بخلص، وإنما دخلوا فيهم بعد فاستعربوا. . . » (ابن منظور، لسان العرب: مادة عرب). ويقول نفس العالم في تفسير الإسلام «الإسلام من الشريعة إظهار الخضوع لله، وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي محمد عليه الصلاة والسلام» (ابن منظور، لسان العرب: مادة سلم).

وأخيرا، فإنه عندما أراد المؤرخ المعاصر ابن واصل أن يترحّم على صلاح الدين قال «رحم الله الملك الناصر صلاح الدين وقدّس روحه. فلم يؤيد الإسلام بعد الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ برجل مثله، ومثل نور الدين محمود بن زنكي، رحمة الله عليهما. فهما جددّا الإسلام بعد دروسه، وشيّدا بنيان التوحيد بعد طموسه. ثم أيّد الله الإسلام بعدهما بالملك الظاهر ركن الدين بيبرس. . . » (ابن واصل، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧، جـ ٢: ١٩٣).

وهكذا وضع ابن واصل صلاح الدين على رأس قائمة من ثلاثة أبطال، اعتبرهم أعظم حماة الإسلام في عصر الحروب الصليبية، هم نور الدين محمود،الذي أتم بناء الجبهة الإسلامية الممتدة من الفرات إلى النيل، والذي أنزل عدة ضربات قوية بالصليبيين على امتداد هذه الجبهة، وصلاح الدين بطل حطين وبيت المقدس، والظاهر بيبرس الذي توج انتصاراته على الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية، كبرى الإمارات الصليبية في شمال بلاد الشام. وبتدبر هذه القائمة نجد أنها لاتضم اسما عربيا واحدا، وإنما ضمت بطلين من أصل تركي هما نور الدين محمود والظاهر بيبرس، وبطل ثالث من أصل كردي، هو صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ولم يكن ابن واصل ـ وهو الفقيه المؤرخ العربي الجذور ـ متجنيا على العرب والعروبة عندما خط عبارته السابقة، وإنما كان أمينا على التاريخ حريصا على صدق الكلمة. ولووجد ابن واصل بطلا عربيا واحدا على مستوى الأبطال الثلاثة السابق ذكرهم، في سياق تأريخه لحركة الجهاد ضد الصليبيين لذكر اسمه على رأس القائمة. ولكنه لم يجد، ولم يرتض لنفسه، وهو المؤرخ الأمين، أن يزيف التاريخ جريا وراء عاطفة عنصرية، في عصور كان الدين فيها يشكل أقوى رباط يربط أفراد أي مجتمع بعضهم بعضا.

ومرة أخرى نقول إن هذا لاينتقص من شأن العرب والعروبة، فإن للعرب رصيدهم السياسي والحربي والحضاري الضخم، مما يجعلهم في غنى عن أن نزور الحقائق التاريخية لننسب إليهم ما ليس لهم. وحسب الإسلام أنه جعل المؤمنين إخوة، وجعل الجهاد فرضا على المسلم القادر، ولم يفرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

الهوامش

(١) تنسب الياروقية إلى ياروق، أحد أمراء التركمان الذين خدموا نور الدين محمود.

(٢) المهرانية والهكارية، اسمان لبعض القبائل الكردية.
(٣) البيكار، وجمعه بياكير، لفظ فارسي معناه الحرب ـ انظر: Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes.
(٤) الجشار، ومفردها جشير، هي الخيل والبقر والماشية عند خروجها للمرعى. والمجشر هو المرعى (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٤٤، حوادث سنة ٥٨٧ هـ). وكذلك: Dozy: Supp. Dict. Ar.
(٥) أمير عربي، نزح إلى إقليم الجزيرة بعد أن طرده الخليفة المسترشد. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ ـ حوادث سنة ٥١٧ هـ، ابن العديم: زبدة الحلب، جـ ٢، ص ٢٢١).
(٦) الطلب، وجمعه أطلاب، لفظ كردى معناه الأمير الذي يقود مائتي فارس، ثم أطلق اللفظ على الكتيبة من الجيش. وأول ما استعمل هذا المصطلح بمصر والشام على أيام صلاح الدين (ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ١٨٧).
(٧) اليزك لفظ فارسي، بمعنى الحرس، أو مقدمة الجيش، أو القوة الاستطلاعية (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٥٨)، (Dozy: Supp. Dict. Ar.).
(٨) كان مملوكا لأسد الدين شيركوه، ثم انتقل بعد وفاته إلى صلاح الدين، ولذا لقب بالأسدي الصلاحي.
(٩) هو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء لاجين، كردي الأصل من الأسدية، وأمه (ست الشام) أخت صلاح الدين (ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص ٢٩٥)، (ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٧١).
(١٠) الجاووش هو الذي يستنفر الجند للقتال، واللفظ تركي الأصل يطلق على من يقوم بالنداء والتنبيه. (المقريزي: كتاب السلوك، جـ ١، ص ٨٧٠، حاشية ٢ للدكتور محمد مصطفى زيادة).

المراجع العربية

ابن أبي أصيبعة — **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ترجمة أبي البيان بن المدور.
ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي — **الكامل في التاريخ**، طبعة ليدن، بريل، ١٨٦٢م.
ابن تغرى بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف — **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، دار الكتب المصرية، ١٩٣٥م.
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد — **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، القاهرة: ١٢٨٤ هـ.
ابن شّداد، القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف — **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، تحقيق: محمد محمود صبح، القاهرة: ١٩٦٢م.
ابن العديم، الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر — **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سامي الدهّان، دمشق: ١٩٥٤م.
ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة — **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق آمد روز، ليدن، بريل، ١٩٠٨م.
ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد المصري — **لسان العرب**، إعداد وترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي.
ابن منقذ، أسامة الشيزري — **كتاب الاعتبار**، تحقيق: فيليب حتى، برنستون: ١٩٣٠م.
ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم — **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، جـ ١، ٢، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة: ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧م.
أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن — - **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النووية والصلاحية**، الجزء الأول في قسمين، تحقيق: محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة: ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢م. وفي بقية الكتاب رجعنا إلى طبعة القاهرة، ١٢٨٧ هـ.
- **ذيل الروضتين**.

الأصفهاني، عماد الدين الكاتب
- **تاريخ دولة آل سلجوق**، الطبعة الثانية، بيروت: ١٩٧٨م.
- **خريدة القصر وجريدة العصر**، تحقيق: شكري فيصل، دمشق: ١٩٥٥م.
- **الفتح القسّي في الفتح القدسي**، تحقيق: محمد محمود صبح، القاهرة.

بارتولد. و.
تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد، القاهرة: ١٩٥٨م.

الشيخ، محمد محمد موسى
الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الاسكندرية: ١٩٨٠م.

طرخان، إبراهيم علي
النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٨م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح
الحركة الصليبية، جزءان، الطبعة الرابعة، القاهرة: ١٩٨٦م.

الفارقي، أحمد بن يوسف
تاريخ ميافارقين وآمد، المعروف بتاريخ الفارقي، تحقيق: بدوي عبد اللطيف عوض، القاهرة: ١٩٥٩م.

ماجد، عبد المنعم
«المصريون وحدهم استردوا بيت المقدس من الصليبيين»، **سجل الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدرسات التاريخية**، القاهرة: ١٩٨٤.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي
- **كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك**، الجزء الأول، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، القاهرة: ١٩٥٦م.
- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، بولاق: ١٩٧٠ هـ.
- **الإعراب في ذكر من بأرض مصر من الأعراب**، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة.

المراجع الأجنبية

Dozy R. — **Supplement aux distionnaires araches,** Troisieme Edition, Leyde, Brill, 1967.

William of Tyre — **A History of Deeds Beyond the Sea,** Translated and Annotated by E.A. Babcook and A.C. Krey, (Columbia, 1943).